الفصل الأول: بين يدي السورة الكريمة

أولا: اسم السورة وما اشتهر لها من أسماء:

سورة الممتحنة هذا اسمها الذي وردت التسمية به؛ ولهذه التسمية (الممتحنة) ضبطان أشار إليهما القرطبي رحمه الله بقوله:("الممتحنة "بكسر الحاء" أي المختبرة، أضيف الفعل إليها مجازا، كما سميت سورة "التوبة" المبعثرة والفاضحة؛ لما كشفت من عيوب المنافقين. ومن قال في هذه السورة: الممتحنة "بفتح الحاء" فإنه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، قال الله تعالى:{فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن} الممتحنة:الآية. وهي امرأة عبدالرحمن بن عوف، ولدت له إبراهيم بن عبدالرحمن)[1].

وقد وردت تسميتها بهذا الاسم (الممتحنة) على ألسنة الصحابة رضي الله عنهم ففي الدر المنثور للسيوطي رحمه الله (أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الممتحنة بالمدينة وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله)[2].

ووجه تسميتها بذلك ورود آية امتحان النساء المهاجرات فيها.

ومما سميت به السورة من باب الاجتهاد:سورة المودة، وكذلك سميت سورة الامتحان.

ثانيا: ما ورد في فضل السورة أو بعض آياتها

سورة الممتحنة لم يثبت في فضلها حديث سوى الفضل العام الوارد في سور المفصل، وهي منها.

ثالثا: عدد آيات السورة واختلاف العلماء في ذلك:

سورة الممتحنة عدد آياتها ثلاث عشرة آية بلا خلاف بين أهل العلم. قال أبو عمرو الداني:"لا نظير لها في عددها... وهي ثلاث عشرة آية ليس فيها اختلاف ولا فيها مما يشبه الفواصل شيء"[3].

وقال الطاهر بن عاشور:"واتفق أهل العدد على عد آيها ثلاث عشرة آية. وآياتها طوال"[4].

رابعا:تاريخ نزول سورة الممتحنة:

اتفق أهل التفسير على أن نزول صدر هذه السورة كان في شأن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في كتابه إلى أهل مكة يخبرهم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم.

قال الطبري:"وذكر أن هذه الآيات من أول هذه السورة نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة، وكان كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخفاه عنهم، وبذلك جاءت الآثار والرواية عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم"[5].

---

[1] _ الجامع لأحكام القرآن، 49/18.

[2] _ الدر المنثور، 124/8.

[3] _ البيان في عد آي القرآن، ص244.

[4] _ التحرير والتنوير، 130/28.

[5] _ تفسير الطبري، 311/23.

قال ابن عاشور:"واتفقوا على أن الآية الأولى نزلت في شأن كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين من أهل مكة"[6].

ولكن اختلفوا في هذا الخروج هل كان خروجه صلى الله عليه وسلم إلى مكة عام الحديبية، وقد ذهب إلى هذا القول قتادة وقال به ابن عطية في تفسيره ويستدل بما رواه الطبري بسنده إلى علي رضي الله عنه قال: (لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتي مكة، أسر إلى ناس من أصحابه أنه يريد مكة، فيهم حاطب بن أبي بلتعة، وأفشى في الناس أنه يريد خيبر، فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن النبي صلى الله عليه وسلم يريدكم...)[7]. ووجه ذلك أن خيبر كانت قبل فتح مكة فيكون إرادته مكة في هذه الرواية أي في عمرة الحديبية[8]. وذهب عامة أهل السير، والمفسرين إلى أن هذا الكتاب أرسله حاطب إلى كفار قريش في خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى فتح مكة، ولعل مما يقوي هذا الرأي أن الداعي في فتح مكة لمكاتبة المشركين أقوى، فليس في خروج النبي صلى الله عليه وسلم للحديبية ما يقلق المشركين كي يحذرهم منه حاطب رضي الله عنه فيكون له عندهم يد هو بحاجة إليها، فقد خرج بمن معه معتمرا ليس معهم إلا سلاح الراكب، على خلاف فتح مكة فقد خرج صلى الله عليه وسلم متجهزا لفتحها وتطهيرها من الشرك وأهله.

وقد انتصر الطاهر بن عاشور رحمه الله بعد عرضه للقولين للقول الأول فقال:"ومعظم الروايات ليس فيها تعيين ما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم من تجهزه إلى مكة أهو لأجل العمرة أم لأجل الفتح فإن كان الأصح الأول وهو الذي نختاره كانت السورة جميعها نازلة في مدة متقاربة فإن امتحان أم كلثوم بنت عقبة كان عقب صلح الحديبية، ويكون نزول السورة مرتبا على ترتيب آياتها وهو الأصل في السور.وعلى القول الثاني يكون صدر السورة نازلا بعد آيات الامتحان وما بعدها حتى قال بعضهم: إن أول السورة نزل بمكة بعد الفتح، وهذا قول غريب لا ينبغي التعويل عليه"[9].

خامسا:مكية السورة أو مدنيتها:

نقل ابن عطية رحمه الله الإجماع على مدنيتها كلها فقال:"هي مدنية بإجماع المفسرين"[10]، وممن نقل الإجماع ابن الجوزي رحمه الله فقال:"وهي مدينة كلها بإجماعهم"[11]،كما نقله القرطبي رحمه الله أيضا فقال:"مدنية في قول الجميع"[12].

---

[6] _ التحرير والتنوير، 130/28.

[7] _ تفسير الطبري، 312/23.

[8] _ التحرير والتنوير، 130/28.

[9] _ المرجع نفسه، 131/28.

[10] _ المحرر الوجيز، 267/5.

[11] _ زاد المسير، 230/8.

[12] _ الجامع لأحكام القرآن، 49/18.

فسورة الممتحنة من السور المتفق على مدنيتها، ويدل لذلك ما يلي[13]:

1-ما روي عن ابن عباس، وابن الزبير رضي الله عنهم[14]، أن سورة الممتحنة نزلت بالمدينة.

2- ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ ﴾ [1-3] أنه نزل في مكاتبة حاطب بن أبي بلتعة، ومن معه إلى كفار قريش يحذرونهم.

3- أنها معدودة ضمن القسم المدني في الروايات التي عددت المكي والمدني.

وبالنظر لاعتبارات تعريف المكي والمدني الثلاثة، وهي:

اعتبار الزمان، المكان، المخاطب، نجد أن سورة الممتحنة مدنية بكل الاعتبارات فمكان نزولها المدينة، وزمن نزولها بعد الهجرة، وخطاباتها موجهة لأهل الإيمان، فتكون السورة بكل الاعتبارات مدنية.

سادسا: مقاصد السورة:

حين نتأمل هذه السورة الكريمة نجد أن من أول وأولى مقاصدها وغاياتها: التأكيد على البراءة التامة من الشرك وأهله، وتجريد القلب لله تعالى[15]. قال البقاعي:"مقصودها براءة من أقر بالإيمان ممن اتسم بالعدوان دلالة على صحة مدعاه كما أن الكفار تبرؤوا من المؤمنين وكذبوا بما جاءهم من الحق لئلا يكونوا على باطلهم أحرص من المؤمنين على حقهم، وتسميتها بالممتحنة أوضح شيء فيها وأدله على ذلك لأن الصهر أعظم الوصل وأشرفها بعد الدين، فإذا نفى ومنع دل على أعظم المقاطعة لدلالته على الامتهان بسبب الكفران الذي هو أقبح العصيان"[16].

قال الطاهر بن عاشور –رحمه الله – اشتملت من الأغراض على[17]:

- تحذير المؤمنين من اتخاذ المشركين أولياء مع أنهم كفروا بالدين الحق وأخرجوهم من بلادهم.

-إعلامهم بأن اتخاذهم أولياء ضلال وأنهم لو تمكنوا من المؤمنين لأساؤوا إليهم بالفعل والقول.

-أن ما بينهم وبين المشركين من أواصر القرابة لا يعتد به تجاه العداوة في الدين.

-ضرب لهم مثلا في ذلك قطيعة إبراهيم لأبيه وقومه.

-وأردف ذلك باستئناس المؤمنين برجاء أن تحصل مودة بينهم وبين الذين أمرهم الله بمعاداتهم أي هذه معاداة غير دائمة.

---

[13] _ المكي والمدني من السور والآيات – من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، محمد بن عبد العزيز الفالح، ص394-395، ط1، 1433هـ/2012.

[14] – ينظر الدر المنثور، 124/8.

[15] – التناسق الموضوعي بين سورتي الممتحنة والصف، ص77.

[16] – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 547/7.

[17] – التحرير والتنوير، 132/28.

-وأردف بالرخصة في حسن معاملة الكفرة الذين لم يقاتلوا المسلمين قتال عداوة في دين ولا أخرجوهم من ديارهم. وهذه الأحكام إلى نهاية الآية التاسعة.

-حكم المؤمنات اللاء يأتين مهاجرات واختبار صدق إيمانهن وأن يحفظن من الرجوع إلى دار الشرك ويعوض أزواجهن المشركون ما أعطوهن من المهور ويقع التراد كذلك مع المشركين.

-مبايعة المؤمنات المهاجرات ليعرف التزامهن لأحكام الشريعة الإسلامية. وهي الآية الثانية عشرة.

-تحريم تزوج المسلمين المشركات وهذا في الآيتين العاشرة والحادية عشرة.

-النهي عن موالاة اليهود وأنهم أشبهوا المشركين وهي الآية الثالثة عشرة.

سابعا:مناسبات السورة:

- **مناسبة السورة لما قبلها:**

قال أبو حيان:"ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أنه لما ذكر فيما قبلها حالة المنافقين والكفار، افتتح هذه بالنهي عن موالاة الكفار والتودد إليهم"[18].

قال وهبة الزحيلي:تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها وهي سورة الحشر من وجهين[19]:

1- ذكر في الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضا، ثم موالاة الذين نافقوا للكفار من أهل الكتاب، وافتتحت هذه السورة بنهي المؤمنين عن اتخاذ الكافر أولياء، لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك، وكرر النهي في السورة، ثم ختمت به.

2- كانت سورة الحشر في المعاهدين من أهل الكتاب، وهذه السورة للمعاهدين من المشركين، لأنها نزلت في صلح الحديبية، فالسورتان تشتركان في بيان علاقات المسلمين مع غيرهم.

- **مناسبة السورة لما بعدها:**

قال السيوطي رحمه الله تعالى:"في سورة الممتحنة ذكر الجهاد في سبيله، وبسط في هذه السورة أبلغ بسط"[20].

---

[18] - تفسير البحر المحيط، 250/8.

[19] - التفسير المنير، 115/28.

[20] - تناسق الدرر في تناسب السور، ص134.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1)

* سَبَبُ النُّزُولِ:

1 – أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنَّسَائِي عن علي بن أبي طالب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال: بعثني رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أنا والزبير والمقداد فقال: (انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ، فإن بها ظعينةً معها كتاب، فخذوه منها) قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرِجنَّ الكتاب أو لنلقِيَنَّ الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة، إلى ناسٍ بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –. فقال رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: (يا حاطب ما هذا). قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنتُ امرءًا ملصقًا في قريش، يقول: كنت حليفًا، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: (أما إنه قد صدقكم) فقال عمر: يا رسول اللَّه، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: (إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل اللَّه اطلع على من شهد بدرًا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فأنزل اللَّه السورة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) – إلى قوله: (فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ).

وفي رواية للبخاري قال عمرو: ونزلت فيه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) قال: لا أدري الآية في الحديث أو قول عمرو.

حدثنا علي: قيل لسفيان في هذا، فنزلت: (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي). قال سفيان: هذا في حديث الناس، حفظته من عمرو، ما تركت منه حرفًا، وما أُرى أحدًا حفظه غيري.

وفي رواية مسلم للحديث: وليس في حديث أبي بكر وزهير ذكر الآية. وجعلها إسحاق في روايته من تلاوة سفيان.

* دِرَاسَةُ السَّبَبِ:

هكذا جاء في سبب نزول هذه الآية. وقد ذكر جمهور المفسرين هذا الحديث وجعلوه سبب نزولها كالطبري والبغوي وابن العربي وابن عطية والقرطبي وابن كثير والسعدي وابن عاشور.

قال الطبري: (وذُكر أن هذه الآيات من أول هذه السورة نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة، وكان كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قد أخفاه عنهم، وبذلك جاءت الآثار والرواية عن جماعة من أصحاب رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وغيرهم). اهـ.

قال البغوي: (قال المفسرون: نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة كما جاء في الحديث). اهـ. وقال ابن عطية: (وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة). اهـ.

وقال ابن كثير: (وكان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة وذلك أن حاطبًا هذا كان رجلاً من المهاجرين. وكان من أهل بدر أيضًا وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفًا لعثمان فلما عزم رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على فتح مكة لما نقض أهلها العهد فأمر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال: (اللهم عمِّ عليهم خبرنا) فعمد حاطب هذا فكتب كتابًا وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً فأطلع اللَّه على ذلك رسول اللَّه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – استجابة لدعائه فبعث في إثر المرأة فأخذ الكتاب منها وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته). اهـ.

وقال السعدي: (ذكر كثير من المفسرين أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة حين غزا النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – غزاة الفتح. فكتب حاطب إلى المشركين من أهل مكة، يخبرهم بمسير رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إليهم ليتخذ بذلك يداً عندهم لا شكاً ولا نفاقاً وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بشأنه فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب وعاتب حاطباً فاعتذر بعذر قبله النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –) اهـ.

وقال ابن عاشور: (اتفق المفسرون وثبت في صحيح الأحاديث أن هذه الآية نزلت في قضية الكتاب الذي كتب به حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى من قريش. وكان حاطب من المهاجرين أصحاب رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ومن أهل بدر) اهـ.

هذه أقوال المفسرين شاهدة ظاهرة تُجمع القولَ أن هذه الآية نزلت بسبب قصة حاطب بن أبي بلتعة – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –.

ومع هذا فقد مال ابن حجر إلى أن نزول الآية في هذا الحديث زيادة مدرجة فقال: (وقد بيّن سياق علي أن هذه الزيادة مدرجة) ثم استطرد في نقل أقوال المحدثين التي تثبت ذلك.

وعندي – والله أعلم – أن القول ما قال المفسرون وشهرة الأمر عند السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، واتفاقهم عليه تشفي وتكفي، كيف لا وقد أيَّد هذا سياق القرآن.

والحكم بالإدراج لا ينفي نزولها لهذا السبب، إذ قد تنزل ولا تذكر وليس عدم الذكر ذكراً للعدم، وكون أمر نزولها يشتهر على هذا النحو يدل حتماً على أن لذلك أصلاً.

* النتيجة:

أن الحديث المذكور سبب نزول الآيات التي معنا لصحة سنده، وموافقته لسياق القرآن، وإجماع المفسرين عليه واللَّه أعلم.